

العامه، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء، وأكره للانصاف، وأسأل بالالحاف، وأقل شكراً أعند الاعطاء وابطاً عذراً عند المنع، وأضعف صبرا عند ملومات الدهر، من أهل الخاصة. وإنّما عماد الدين وجماع المسلمين، والعدة للأعداء: العامة، فليكن صفوك لهم، وميلك معهم" فهذا كلام صريح في تفضيلهم، والاعتماد عليهم.

غير أننا نقف برهة عند هذا الاندفاع، نقف لنسمع الاعتدال في الرأى والأصالة في الحزم، والدقة في الفكرة، يقول رضى الله عنه في وصية له:

"ثم الصق بذوى الأحساب وأهل البيوتات الصالحة، والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة، والسخاء والسماحة".

نعم ان هذا النغمة قد تبدو شاذة، ولكن ينبغى ألا نرتاع لها ولنكمل استمتاعنا بأنشودة الامام الحبيبة، فان وصيته بالا لتصاق بذوى الأحساب لاتنافي الديمقراطية فهو لم يدع إلى تمييزهم، وإنّما دعا إلى الانتفاع بما عند هم، وكثيراً ما يتسق نبل الأخلاق مع نبل الدماء، ثم ان الامام أتبع ذلك بقوله "والسوابق الحسنه ثم أهل النجدة والشجاعة والسماحة" وهؤلاء يكونون من هذه الطبقة كما يكونون من تلك دون تمييز، على أن الامام قد تأثر فيما يبدو بما كان عند العرب من احترام للأنساب وتفاخر بها. وإذا كان الامام قد أخذ بالديمقراطية كما وضع فمن الطبيعى أن نراه نصيراً للحرية، يهيب بآبائه "ولا تكن عبد غيرك وقد خلقتك الله حراً".

ولكن الامام لم ينس أن للجمهور سيئاته، كما أن له حسناته، فلنسمع كلمة الامام في الغوغاء، قال:

"الناس ثلاثة: فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل نجاه، وهمج رعاع اتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق".

ووصف الغوغاء في موضع آخر بأنهم من إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا، ووصفهم مرة أخرى بأنهم من إذا اجتمعوا ضلوا، وإذا تفرقوا نفعوا، لأن كل مانع ينصرف إلى عمله فيحصل النفع.